الشّعر الفلسطيني مِن عمق المأساة إلى عمق الدّلالة

قراءة دلالية حجاجية في قصيدة (عن الصّمود) لمحمود درويش

The Palestinian poetry, from the depth of tragedy to the depth of significance:
A semiotic-argumentative reading of the poem 'On Resilience' by Mahmoud Darwish."

ط/د. محفوظ زاوش*

ملخص البحث

تظل القضية الفلسطينية أحد أكثر القضايا المعاصرة في العالم تقضُّ مضاجع المنابر السياسية، وتحرك الأقلام الداعمة للحرية والعدالة الإنسانية، فما من شاعر إلا وقد سخّر شعريته الطافحة مُنافحا عنها؛ وعيا منه برسالة الفن في خدمة القضايا الإنسانية العادلة، ويُحسب للقضية الفلسطينية دورها في إثراء نظرية المقاومة الثّقافية وتجديد موضوعاتها،

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن إشكالية العلاقة الجدلية بين الفنّ والسياسة من خلال العلاقة بين القضية الفلسطينية ونظرية المقاومة الثقافية، ومدى إسهام الفنّ في نشر الوعي واستغلال الشّعر لطاقاته الشّعرية والحجاجية في مساءلة الواقع لتشكيل رؤيا جديدة في التّعامل مع القضايا المعاصرة.

ونظرا لاعتبارات فكرية وأخرى فنّية ركّزت الدّراسة على الشعر الوطني الفلسطيني في مقاربة دلالية حجاجية لقصيدة (عن الصّمود) للشّاعر الرّاحل محمود درويش لاستجلاء مكنونات الخطاب الشّعري ورسائله السّامية في خدمة المقاومة الثّقافية الفلسطينية التي تواكب الأحداث اليومية في صراع الفلسطيني مع الآخر المحتل.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثّقافية ، القضية الفلسطينية، الدلالة والحجاج، قصيدة عن الصّمود.

Abstract

The Palestinian issue remains one of the world most contemporary cases . It puzzles the political Platform and the movement of pens supporting human freedom and justice. No poet will laugh at his overwhelming poetry and oppose it. He is aware of the message of art.

*فلسطين.

Serving just the humanitarian cause, the Palestinian cause has played a role in enriching the theory of cultural resistance and updated its theme.

This study attempts to answer the question of the dialectical relationship between art and politics through the relationship between the Palestinian question and the theory of cultural resistance, and the extent to which art contributes to the dissemination of awareness and the use of poetry , and debate energy. Challenge the reality and form a new vision when dealing with contemporary issues. Due to intellectual and artistic considerations, this study focuses on Palestinian national poetry. This is a semantic approach to a poem (about tenacity) , by the late poet Mahmoud Darwish, which aims to clarify the components of poetic discourse and its noble message of serving the resistance movement. Palestinian culture synchronized with daily events in the conflict between Palestine and other occupiers.

Key words :

Cultural resistance, Palestinian issue, semantics and controversy, poems about resilience

مقدمة:

تُلزم بعضُ المذاهب الأدبية ـ على غرار الواقعية ـ الأديب والشّاعر خاصة بأنْ يلتزم بقضايا أمته وعصره، وأنْ يسخِّر أدبَه وفنّه في خدمة الإنسان، ذلك أنَّ الأدبَ أرقى من الحياة؛ فهو يوجِّهها ويرسم لها الطريق الأمثلَ، فللأدب «وظيفة عظيمة وفعّالة، يجب عليها أنْ تُسهم في عملية التغيير التي يسعى إليها الإنسان المعاصر، كما يجب عليها أنْ تلتزم التزاما أمينا بكل المشكلات والقضايا التي يعاني منها، وتحاول أنْ تجدَ لها الحلول الفاعلة والمؤثرة التي تستطيع أنْ تسهم في القضاء على كل مظاهر البؤس والتّخلف والقهر»[1]، وممّا لا شك فيه أنَّ رسالة الأدب ذات أهمية قصوى في الوقت الرّاهن؛ الذي استبدَّ فيه الظّلم، واستشرت فيه آلة الاستعباد، وسادت فيه مظاهر التّخلف؛ رغم ما يعرفه العصر من تطوّر رهيب وتكنولوجيات علمية ومعرفية تخطّت حدود التوقع، ولعلَّ هذه الأخيرة من الأسباب الرئيسة في المظاهر التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم.

إنَّ الحاجةَ أصبحت عظيمةٌ إلى إقامة مصدّات متينة لمواجهة التّحديات التي تشهدها الأمة العربية، ومن أهم هذه المصدّات المقاومةُ الثّقافية؛ إذْ يعتبرها "إدوارد سعيد" البديل النّاجع للمقاومة العسكرية في الأزمنة الحديثة؛ لأنّها ترتبط بدور المثقف الذي يعدُّ العنصر الفاعل في الحياة المعاصرة، وقد تنبّه "نزار قباني" إلى خطرها فدعا إلى ثورة الكلمة، حيث يقول: «الكتابة الثّائرة يصنعها إنسانٌ ثائرٌ، ففعل الكتابة وفعل الثّورة متلازمان»[2]، فهو ينبّه إلى ضرورة استغلال فعل الكتابة الإبداعية التي لها مقومات تؤهلها لنشر الفكر والوعي، وتعدّ سلاحا من أسلحة معارك اليوم،«وعمل الثورات العربية التي انفجرت وستنفجر أن تجعل الكتابة جزءا منها، وأن تعتبرها حليفها وشريكها في فعل التغيير»[3].

لقد أضحت الحاجة ماسّة إلى المقاومة الثقافية لتؤدي رسالتها في مواجهة التحديات التي تشهدها الأمة العربية المكلومة في فلسطين، خاصة وأنها عجزت عن توحيد جهودها العسكرية بعد تجربة حربي (1973/1967) إذ فقدت الثّقة في الوحدة، وأنهكتها الصراعات الجانبية، فبات لزاما أنْ تتوحد الجهود الشعبية وجهود المثقفين والفنانين في التّصدي للعدوان الصهيوني.

فضّلت الدراسة وقْفَ البحث على الشعر الوطني الفلسطيني من منظور إبراز دور المقاومة الثقافية المحلية في نشر الوعي الوطني، لأنّها أكثر دراية بحاجة الأمة الفلسطينية إلى ما يوحدها، ويقوض سياسةَ المحتل وعدوانه المتعدد الأشكال، ومن منظور مكانة الشاعر "محمود درويش" الأدبية في الشعر السياسي العربي المعاصر، الذي بلغ العالمية فترجمت أعماله إلى أهم اللغات الحية، فكان شعره عابرا للقارات مخترقا الحصار المضروب على القضية الفلسطينية وشعبها.

يهدف البحث إلى كشف العلاقة الجدلية بين الفن والسياسة، ومدى أهمية المقاومة الثقافية في الدفاع عن القضية الفلسطينية أمام عجز المقاومة العسكرية العربية الموحدة، ولأنَّ الحاجة إلى نشر الوعي وزيادة منسوب الثّقة أضحت السّبيل

الأنسب أمام تغوّل آلة المحتل الصهيوني وانتصاراته على الأرض والسياسة، كان انتقاء قصيدة (عن الصمود) لشاعر القضية محمود درويش لمقاربتها من منظور دلالي حجاجي لإبراز شعرية الخطاب السياسي ودوره الفاعل كمقاومة يفرضها الواقع والوقائع.

1. قصيدة "عن الصّمود" للشّاعر محمود درويش

1.

لو يذكرُ الزّيتون غارسَهُ

لصار الزّيتُ دمعا!

يا حكمة الأجداد

لو مِنْ لحمنا نُعطيك درعا!

لكنَّ سهْلَ الرّيح،

لا يُعطي عبيدَ الرّيح زرعا!

إنّا سنقلع بالرّموش

الشّوكَ والأحزان.. قلعا!

وإلامَ نحمل عارنا وصليبنا!

والكون يسعى..

سنظلُّ في الزّيتون خضرتَهُ،

وحولَ الأرضِ درعا!!

-2-

إنّا نُحبُّ الورْدَ،

لكنّا نُحبُّ القمْحَ أكْثرْ

ونُحبُّ عِطْرَ الورْد،

لكن السّنابل منه أطْهرْ

فاحموا سنابلَكم من الأعصار

بالصّدر المُسمَّرْ

هاتوا السّياج من الصّدور..

من الصّدور، فكيفَ يُكْسرْ؟؟

إقْبض على عنق السّنابل

مثلما عانقْتَ خنجرْ!

الأرض، والفلاح، والإصرار،

قلْ لي: كيف تُقْهرْ..

هذي الأقانيم الثلاثة،

كيْفَ تُقْهرْ؟[4].

2. شعرية خطاب المقاومة الثقافية في قصيدة (عن الصمود)

يؤشر عنوان القصيدة على طبيعة الخطاب، فهو وإن لم يكن بنية من بنياته إلا أنّ الدلالات العميقة لكثير من البنى النصية تحيل إلى ملفوظ العنوان ودلالاته الفكرية، ممّا يحقق التّعالق النّصي بين عتبة الخطاب الأولى ومتن النّص، وقد حرص الشّاعر أنْ يستغلّ الطّاقات الإيحائية لبعض المفردات الطبيعية ليعبّر بها عن قضيته الأساس، فشحن ملفوظ الزّيتون بدلالات الأصالة والعراقة والارتباط بالأرض، إذ يعد شجر الزيتون الحجة الدامغة على الانتماء إلى هذه الأرض العربية المغتصبة، ولإبراز

الوفاء للأرض يعبر "درويش" بخُضرة الزيتون التي تلازمه، ولا ينفك لونه الأصلي بارز مقاوما لكلِّ أشكال الجفاف،(سنظل في الزيتون خضرته) فكأنَّ الفلسطيني هو تلك الخضرة التي تتحدى أساليب الجفاف التي يصنعها المحتل ليقتل الحياة في قلوب الشعب.

إنَّ لغةَ الخطاب الشّعري في قصيدة "عن الصمود" لغةٌ انزياحية بامتياز، فالشاعر لم يستخدم اللغة المباشرة أو الملفوظات التي تحيل إلى المعاني السياسية المباشرة، وكأنه يتبرم بمفردات السياسة، ويحيل إلى نفوره من الخطاب السياسي، فقد حلَّق بالمتلقي في فضاء الأرض لكون القضية تتعلق بها، بين مغتصبٍ يسعى إلى تزييف تاريخ الأرض(فلسطين) ويدّعي ملكيتها، وآخرَ لا يملك إلا هذه الأرض التي يعرفها وتعرفه، هو مُفلحها؛ يعرفه زيتونها وقمحها، فعبّر بها عن طبيعة الصّراع وسعى من خلالها إلى أن يشدّ من عزيمة شعبه ليواصل رحلة الكفاح والصّمود، وقد عمد إلى المفاضلة بين بعض عناصرها ليحفز المتلقي إلى تحديد أهدافه بعمق في مثل قوله:(نحب الورد/لكن القمح أكثر)(نحب العطر/لكن السنابل أطهر).

كما بثّ الشّاعر رسائل التّحدي والنّضال والاعتزاز من خلال التّركيز على قضية الأصالة(الأرض، الفلاح) لتكون الأجيال الحاضرة والقادمة وفيّةً لأصولها، إذِ التّمسك بالأصل يعدّ أحد أهم الأسلحة التي تحقق للشعوب وجودَها الفعلي فيقول:(إقبض على السنابل)، ويختم خطابه الشّعري برسالة يجعل فيها الصّمودَ القضيةَ التي ينبغي أن تكون أحد أقطاب التحرر، إذ يتوجب أن تلازم عناصر الأصالة لإفشال مخططات الآخر في فكّ الارتباط بين طرفيْ العلاقة(أرض، فلاح).

3. حجاجية الصورة الشعرية في خطاب المقاومة الثقافية

إن الاستعارة أحد أهم الأدوات البلاغية حضورا في القصيدة العربية منذ القديم، فهي «ضرب من المجاز الذي يتأسس على فلسفة المشابهة والمشروط بنمط من القرائن اللّفظية والعقلية التي تعدل بالكلام عن مساره الحقيقي نحو الدّلالة

المجازية على جهة النّقل فإنّها تتوفر على إمكانات ثرّةٍ تتيح فهم أدبية الخطاب في كلّيته وشموليته[5]».

يختار الشّاعر ملفوظ (الزيتون) ليكون المفردة المفتاحية والرّمز الأساس في الخطاب، لكونه يُحيل إلى الأصالة والعراقة، ويستخدمه كأحد أطراف الصّورة الشّعرية حين يُنْطِق الشّاعرُ (الزيتون) ليُدلي بموقف في قضية الأصالة، ويُقدّم شهادته عن غارسه (لو يذكر الزيتون غارسه)، فالتّركيب الاستعاري ينتقل بالقارئ إلى مساءلة (الزيتون) عن حقيقة وجودِه في أرض فلسطين، فتكون الإجابة صورةً شعريةً ناطقةً بالحزن (صار الزّيت دمعا)، فالصّورة الشّعرية المركّبة تعتمد على تحريك الجماد واستنطاقه تحقيقا للدلالة الفكرية التي يتوخاها الشّاعر من التّركيب الانزياحي.

إنَّ الزيتون يتألّم لحال مَنْ ثبّتُ معالمَه على هذه الأرض حسرةً على غيابه أو تغييبه من طرف المحتل، والشّاعر يرحل بالمتلقي إلى الانتقال من تاريخ الزّيتون إلى البحث في تاريخ غارسه؛ ليدركَ مدى أصالة الفلسطيني، وإذا كان الزّيتون يتحسّر على غارسه فإنَّ الفلسطينيين جميعا لن يتخلوا عن أجدادهم الذين زرعوا الزيتون ليكون لأحفادهم سرَّ الوجود، والوثيقة التّاريخية التي تُعطيهم حق امتلاك الأرض، لذلك يعبر الشّاعر بالصورة الاستعارية عن الوفاء للأجداد بالنّضال والتّضحية فيقول:

إنّا سنقلع بالرّموش

الشّوكَ والأحزان قلعا[6]

التّركيب الاستعاري (نقلع بالرّموش) يُحيل إلى أنَّ الفلسطيني لن يدّخر جهدا في الدّفاع عن أصوله وأصالته، ومهما بلغت قوّة الآخر، فالرّموش الفلسطينية على ضعفها ترفض الذّل والهوان، وستكون المعولَ الذي يزيل كلَّ الأشواك، فالاستعارة المكنية التي حوّلت الرّموش إلى معول قويّ تُبرزُ نزعة التّحدي، وقوة الأحفاد في تجاوز كلّ الصّعاب التي يعيشونها، فحجاجيتها في قدرتها على أداء هذه المعاني وفتح باب

التّأويل، ذلك أنَّ «القول الاستعاري يتميّز عن القول الحرفي بكونه يؤدي عدَّة وظائف في عملية التّخاطب وعمليتي الفهم والتّأويل بين المتكلّم والسّامع، ولذا فإنَّ القولَ الاستعاري يُعدُّ آليةً حجاجية بامتياز»[7] ، فالقول الاستعاري في الخطاب الشّعري المعاصر يتضمن معرفة وحجاجا، إضافة إلى إثارة المتلقي وتحريك أحاسيسه لإصدار الأحكام واستخلاص الدّلالات العميقة.

يحفّز "درويش" شعبَه وكلَّ مَنْ يحمل هَمَّ قضيته اعتمادا على التّركيب الاستعاري لقدرته على أداء المعنى بإيجاز وعمق، فالاستعارة «تعدُّ عاملا رئيسا في الحفز والحثِّ ومصدرا للترادف وتعدد المعنى، ومتنفسا للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة[8]»، فالاستعارة أفضل الصّور البلاغية إيجازا وحملا للمعاني، لأنّها تقوم على القيّاس بين المستعار له والمستعار منه، يقول "محمود درويش":

وإلامَ نحملُ عارنا وصليبنا

والكون يسعى....[9]

فالتركيب الاستعاري (نحمل عارنا) ورد في أسلوب استفهامي مجازي يُحيل إلى الرّفض، ويُورِد الحجّة التي تدفع إلى رفض قبول العار، إذْ يستعير الشّاعر من الأشياء المادية ما يُحيل إلى ماديتها وهو ملفوظ (نحمل) ولهذه الاستعارة دلالات متعدّدة، فهي تجسّد العار حين يتقبّله الإنسان، ويرضى بعضُ النّاس تحمُّل هذا الثّقل لاعتبارات مختلفة أهمها اليأس، أو تأثير الواقع على نفسياتهم، كما تبرز حُكْم الشّاعر الرّافض للواقع والسّاعي للتّمرّد عليه، وقد ألْحق بهذه الصّورة ما يؤكد حكمَه الرّافض (الكون يسعى) وكأنّه يدفع الإنسان للاعتبار بحركة الكون الذي لا يستسلم أبدا.

إنَّ الشّاعر يُقدّم صورة استعارية لتكون حجة لصورة استعارية سابقة عنها، فيستفزُّ ذهنَ المتلقي للبحث في حقيقة كلِّ صورة، ثم إيجاد العلاقة الحجاجية بينهما.

4. حجاجية الكناية

الكناية وسيلة تعبير فّنية في الخطاب الشّعري، وهي «أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه»[10] ، إذْ تتأسس على استخدام اللّفظ الظاهر الذي يخفي معنى، أو يومئ إليه، إذْ يمكن للّفظ الظّاهر أنْ يكون مقصودا لذاته، لكنَّ سيّاق التّخاطب هو الذي ينقله من الدلالة الحقيقية إلى الدّلالة المجازية، وللكناية غايات مختلفة إذْ «تستطيع أنْ تسمو بالمعنى، وترتفع بالشّعور إلى مستوى التّعبير الفنّي والأداء الإيحائي الشّفّاف؛ الذي لا يثير المخيّلةَ فحسب، ولكنه ينفذ إلى الذّهن عن طريق الحسّ، فيصدمُه أولا بصورة المعطى الحسّي التي هي صورٌ غير مقصودة، ثم يفجؤه بعد ذلك بما يخفيه هذا المعطى الحسّي من دلالات نفسية وفكرية، وذلك بواسطة الإيماءات السّريعة، واللّمحة الخاطفة التي يتلقّفها العقل والشّعور مبهورِيْن ببهجة الاكتشاف ومسرّة المفاجأة[11]»، الأمر الذي يجعل الكناية ذات حضور واضح في الخطاب الشّعري.

يستخدم "درويش" الكناية في هذا الخطاب الشّعري وعيًا منه بقيمة هذه الصّورة الانزياحية في إثارة ذهن المتلقي، لكون سياق الخطاب يُلغي المعنى السّطحي للتّركيب الكنائي، ويمكن للكناية أنْ تُقدّم الحكمَ مصحوبا بدليله لتتحقّقَ الغاية الإقناعية الحجاجية في الخطاب الشّعري، يقول الشّاعر:

سنظلُّ في الزّيتون خضرتَه[12]

إنَّ المتلقي يدرك دون عناء أنَ صفةَ الاخضرار ملازمة للزيتون على الدّوام، رغم تقلُّب الفصول واختلاف مظاهرها الطبيعية، ممّا يدفعه إلى إسقاط هذا المعنى على المتكلّمين (الفلسطينيين)، فيكون ذلك حافزا على الحفر في المدلولات الكنائية انطلاقا من مراعاة السّياقات القبلية لهذه الصّورة الكنائية ليدرك المعنى العميق، فالشّاعر إذْ يُصوّر المواطن الفلسطيني كالخضرة الملازمة للزّيتون، فإنَّه يراه هو الزّيتون بعينِه عراقةً وحياةً وتحدٍّ، لكلّ العوامل التي تعترض سبيلَه في الحياة.

ولا يكتفي الشّاعر بذلك بل يبرزُ قيمة الوطن الذي يتطلب أنْ يقدّسه الإنسانُ بكلّ ما يملك، والفلسطيني مُتشبّثٌ بأرضه، وقد شكّل مع إخوته درعا حاميةً لها (...حول الأرض درعا)، فتحوّلُ الفلسطينيين إلى دروع بشرية تواجه الموت يؤكد على مكانة الوطن عندهم، إذْ لولا الوطن ما وُجدَ هذا الإنسان، فإنْ ضاع الوطن ضاع الإنسان مرتين، هذا التّركيب الكنائي المزدوج يُحفّز كلا من المواطن الفلسطيني والمتلقي على بذل كلّ غالٍ ونفيسٍ في سبيل الحفاظ على وطنه، فالتّركيب الكنائي مشحون بدلالات عظيمة ومعانٍ جليلة تُحلّق في مستوى النَّضال والمقاومة، وترتقي بالخطاب إلى مستوى الجمالية التي تأسر عقل المتلقي، ومن التّراكيب الكنائية قوله:

إنّا نُحبُّ الوردَ

لكنَّا نُحبُّ القمح أكثر

ونُحبُّ عِطر الورْد،

لكن السّنابل منه أطهر[13]

يتكئُ التّركيب الكنائي في هذه الأسطر الشّعرية على أسلوب الموازنة لتحديد قيمة الأشياء للتّكنية من خلاله على المعاني المرتبطة بالسّياقات المقالية السّابقة واللاحقة.

فالمفاضلة بين الورد والقمح في المدلول الحقيقي تبرز أهميةَ القمح الذي يعدّ عاملا قويا في الحفاظ على الحياة في مقابل الورود التي تعدّ من الكماليات التي تزيد من متعة الحياة، لكنَّها لا تضمن استمرارها، والشّاعر بهذه المقابلة يستدعي ذهن المتلقي للبحث في المعنى العميق، ذلك أنّه لا يريد الورد والقمح؛ بل يدفع المواطن الفلسطيني للتّشبث بالأرض ورفض أساليب الإغراء؛ التي يكون المحتل وأعوانه يعمدون إليها لثَنْيِ الفلسطينيين عن أرضهم وشخصيتهم، فالإغراءات المادية في نظر "درويش" على أهمّيتها لا يمكن أنْ تكون بديلا للأرض.

والتّركيب الكنائي الموالي يُفصِّل أكثر في الصّورة الكنائية، ومِن خلالها الفكرة التي يستهدفها الشّاعر، فنجده يُفاضل بين العطر المستمدّ من الورد، والسّنابل التي تحوي القمح، فيرى أنَّ عطرها أطهرُ من سابقه، والغايةُ من هذا التّركيب في مدلوله المجازي هو الإلحاح على اختيار الأساليب الأنجع في الحفاظ على الوجود، هذه التّعابير الكنائية بلغت درجة عالية من الفنّية والقيمة الحجاجية من خلال الشّعرية القائمة على التقابل (ورد/ قمح) والتّفكيك (ورد-عطر) (قمح – سنابل).

ويختم الشّاعر التّعابير الكنائية برسالته الموجَّهة إلى كلِّ فلسطيني أو مَنْ يلتزم بقضية فلسطين قائلا:

إقْبض على عنق السّنابلْ

مثلما عانقْتَ خنجرْ![14]

فالتركيب وإنْ كان يقوم على المشابهة فإنَّ الكناية أبلغ في الدّلالة على المعنى المراد من هذه الدّعوة، إذْ يُكنّي عن صفة التّصبّر والتّحمل وتحدّي المخاطر لتحقيق الأهداف السّامية، هذه الكنايات تؤشِّر على التّعالق بين مختلف الصّور الشّعرية التي تتضافر في إطار الانسجام النّصي خدمة لغايات الخطاب الشّعري المقاوم للاحتلال الذي لم يلتفت إليه الخّطاب الشّعري لأنَّه يستهدف تقوية عزيمة الفلسطيني وتحفيزه على المقاومة والصّمود.

5. حجاجية الأساليب الإنشائية

تخرج الأساليب الإنشائية في الخطاب الشّعري عن مدلولاتها الحقيقية إلى أغراض بلاغية تُعبّر عن دلالات جديدة ومعانٍ نفسية؛ ترتبط بسياقات الخطاب المختلفة (المقامية والمقالية)، وفي قصيدة (عن الصّمود) يستخدم الشّاعر بعض هذه الأساليب ليعبّر عن قضية الصّمود وبثّ روح المقاومة في نفوس شعبه على غرار أسلوب الأمر والاستفهام.

1.5. الأمر:

يخرج الأمر إلى أغراض بلاغية إذا تجاوز الخطاب شرط الاستعلاء والإلزام، ويعدّ أسلوب الأمر من الأساليب الطلبية التي تحمل رسائل الشّاعر في خطابه، ومن أساليب الأمر في قصيدة (عن الصمود) قول الشّاعر:

فاحموا سنابلكم مِن الأعصار

بالصّدر المُسمَّر[15]

لا يمكن بلوغ مقاصد الأسلوب بمعزل عن سياقاته القبلية، لذلك يفرض التّأويل مراعاة الأسطر الشّعرية السّابقة (نحب عطر الورد/لكن السنابل أطهر) إذ بعد بيان أهمّية السّنابل تأتي الدّعوة إلى حمايتها، فالشّاعر يستخدم السّنابل استخداما مجازيا، وإذا كانت السّنابل تستوجب الدفاع فإن أهمية الأسلوب تتجلى في السّطر الموالي، فالشّاعر يستهدف فكرة استغلال كل الإمكانات على اختلاف قوّتها وضعفها في الدّفاع والحماية(بالصدر المسمّر) أمام تجبّر الإعصار(المحتل)، وعليه فالأسلوب الطّلبي(الأمر) يُحيل إلى غرض الحث والتّحفيز وتعظيم قدرات المواطن الفلسطيني أمام جبروت آلة المحتل وإمكاناته.

تتجلى حجاجية هذا الأسلوب في إبراز صراع الثنائيات غير المتكافئة، الذي يدفع المتلقي إلى تصور حقيقة الصّراع ومن خلال ذلك تعديل موقفه ونظرته إلى الآخر المحتل.

ويمارس الشّاعر استراتيجيته الإقناعية بإمكان تحقيق النّصر وقهر المحتل حين يُورد بعد ذلك أسلوب أمر مقترن باستفهام إنكاري يُعد دليلا على نجاح دعوته السابقة فيقول:

هاتوا السياج من الصدور

من الصدور، فكيف يكسر؟؟[16]

إن حماية المقدسات (السّنابل) يحتاج إلى إقامة درع واقية، لذلك يخاطب الشاعر أبناءَ شعبه مراعيا الإمكانات المتاحة، فالدّرع والسّياج هي الصّدر المسمّر، إذ يدفع المتلقي إلى التساؤل قبل الاستجابة للدعوة، لمَ كان الصدر دون غيره؟ ! فإلحاح الشّاعر على الصّدر يحيل إلى قوته، ولا تخفى رمزية ملفوظات الخطاب على غرار السّنابل، الورد، فالصّدر يعني المواجهة لا التراجع، فهو يحيل إلى مضمون الآية الكريمة «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله »[17] .

فأسلوب الأمر وانطلاقا من بعده التداولي التّوجيهي يتضمن دلالات التّحدي والمواجهة، وبعدَ الحثّ على التّصدي يُفصّل الشّاعر في متاعبَ ذلك؛ حتى لا يغتر المواطن الفلسطيني أو يصيبه الإحباط، فيعتبر الحفاظ على الأرض والعرض كالقبض على الخناجر، فيقول:

إقبض على عنق السنابل

مثلما عانقت خنجر[18]

فالأمر في هذا التركيب لا يخرج عن المقاصد السّابقة لكنه يتضمن تنبيها واستعدادا ينبغي أن يصاحبَ فعلَ التّضحية والنّضال، فالشّاعر يبني استراتيجيته الخطابية بناء متكاملا يتضمن هندسةً محكمةً؛ ينبغي أن يسير عليها مخاطَبَه في رحلة التحدي والمقاومة، ويختم الشاعر أساليب الأمر بثلاثية إذا تلازمت لا يمكن أن يقهرها الآخر المعتدي، فيقول:

الأرض، الفلاح، والإصرار،

قل لي :كيف تُقهر..[19]

فإذا كان الفلسطيني صاحبُ أرضٍ يخدمُها وهو في قمّة مواجهة مغتصبِها، فلا بد له من الإيمان بنفسه وأرضه أولا ثم الإصرار على الحفاظ عليها، وعليه يسعى

الشّاعر إلى افتكاك الإقرار بالنّصر من مخاطَبه، فتكون مقاصد الأمر (قل لي) هي الإقرارُ والاعتزاز والتأكيد.

2-5 حجاجية الاستفهام:

الاستفهام أحد الأساليب الإنشائية الطلبية، ويكثر استخدامه في الخطاب الشّعري للتّعبير عن معانٍ مجازية بعيدا عن حقيقة التّركيب اللّغوي الظّاهر، فيُحيل إلى أغراض بلاغية ومعانٍ نفسية، تدعو إلى التّأمل والتّعمّق في الخطاب مع مراعاة سياقات التّخاطب المختلفة، واللّافت في الخطاب الشعري في قصيدة (عن الصمود) ورود الاستفهام مسبوقا بالأمر، ليؤدي وظيفة مجازية فيخرج بذلك إلى تثبيت مقاصد الأمر من خلال سياقات المقال، يقول درويش :

هاتوا السياج من الصدور من الصدور..

فكيف يكسر؟؟.[20]

لا يستهدف درويش إجابة المخاطَب وتصديقه، بل يدفعه إلى تصور دلالات جديدة يؤطرها السّياق النّصي (الأمر) ولذلك يتضمن الاستفهام إنكارا لحصول الانكسار والانهزام، وعلى نفس النمط يأتي قوله

قل لي: كيف تُقهر ..[21]

فيتحدد مدلول الاستفهام ببيان مدى تلازم القوى (الأرض،الفلاح، الإصرار) إذ يحمل الاستفهام بعدا معرفيا؛ هو قوة تلاحم الإنسان المتسلح بالصّمود مع الأرض في تحقيق النّصر، وهي دعوة صريحة إلى الصّمود، طالما أن الفلاح يخدم أرضَه فإنّه في ظل الاحتلال محتاج إليه انطلاقا من مراعاة الحال الراهنة، ويؤكد الشّاعر على استحالة الهزيمة وإنكار حصولها، ويختمُ بها خطابه الشعري ليحمل الاستفهام بعدا نفسيا؛ هو الافتخار بصمود شعبه الذي لم ولن يقهر، وحين يقع هذا المعنى في نفس المخاطَب يستحسن هذا الأسلوب الذي حققَ الغايات التّخاطبية بطريقة فنّية، مما يجعل أسلوب الاستفهام ذا بعدٍ حجاجي في الخطاب الشّعري .

خاتمة :

بحثت الدراسةُ من خلال قصيدة (عن الصمود) "لمحمود درويش" في شعر المقاومة الثقافية، وحاولت إبراز بعض سماتها وأبعادها الفكرية وقوّتها الحجاجية في إطار شعرية الخطاب المؤسس على الرمزية والانزياحية الموجّه إلى المثقف المحلي والعربي على وجه الخصوص، ومن أهم نتائجها.

* .إن شعر المقاومة الثقافية يعد وسيلة من وسائل النّضال ضد الاحتلال، نظرا لالتزامه برسالة القضية الفلسطينية.

* .يجمع خطاب المقاومة الثقافية بين الملفوظات الصّريحة التي تؤطر لطبيعة الخطاب، والملفوظات الانزياحية الرّمزية التي تحقق شعرية الخطاب وتضمن أدبيته التي تبعث على التعلّق بالنّص الشّعري المقاوم.

* .يمتاز أسلوب الخطاب الشّعري من خلال قصيدة عن الصمود بالتركيز على المخاطَب الذي يملك القدرة على التغيير، باستخدام الضمير الجمعي في إشارة إلى ضرورة توحيد القوى في صراعها مع الآخر.

* . للغة الشّعرية في القصيدة بعدان: أحدهما فكريٌّ يُعدّ أساس النّظم، والآخر فني يحققه أسلوب الشّعر المعاصر، وكلاهما يرفع من درجة الوعي، باستخدام الصّورة الشّعرية الحجاجية التي تخلق تفاعلا إيجابيا بين النص وقارئه.

* .اتّكأ الخطابُ الشّعري في القصيدة على الأسلوب الإنشائي الطّلبي لكون شعر المقاومة الثّقافية يحمل رسائل متعددة تختلف مقاصدها باختلاف السّياقات.

* . خرجت الأساليب الإنشائية الطّلبية (الأمر والاستفهام) من الحقيقة إلى المجاز، فعبَّرت عن أهداف الشّاعر السّياسية التي صرَّح بها في عتبة النّص الأولى (العنوان).

* . يؤدي شعر المقاومة الثّقافية رسالتَه الوطنيّة في التّحفيز وشحذ الهمم، والدّفاع عن الأرض والهوية بلُغةٍ فنّيةٍ تستميل القلوب وتقنعُ العقول، فهو بذلك رصاصةٌ أخرى تقاوم الاحتلال، قد تكون أهميتها أعظم من المقاومة السّياسية المتمثلة في الأحزاب والمنظمات، فكم من قصيدة ألهبت الحناجر الفلسطينية فسلت الخناجر وأججت الانتفاضة التي لا تقهر!.

هوامش البحث:

[1] مفيد محمد قميحة: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، عن كتاب: اللغة العربية وآدابها للسنة الثالثة ثانوي للشعبتين آداب ولغات أجنبية، آداب وفلسفة، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، وزارة التربية الوطنية، 2012–2013، ص 107.

[2] نزار قباني: الأعمال النثرية الكاملة، ج7 الكتاب الثلاثون (عن الشعر والجنس والثورة)، منشورات نزار قباني، بيروت، ص522.

[3] المصدر نفسه: ص ن.

[4] محمود درويش: الديوان، مج1، دار العودة، ط14، 1994، بيروت، ص 40–41.

[5] محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدّار العربية للكتاب، ليبيا، 19984م، ص 136.

[6] محمود درويش: الديوان، ص40.

[7] عبد السّلام عشير: عندما نتواصل نغيّر. مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج، دار أفريقيا الشّرق، المغرب، 2006، ص 119–120.

[8] يوسف أبو العدّوس: الاستعارة في النّقد الأدبي الحديث. الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1997، ص11.

[9] محمود درويش: الديوان، ص40.

[10] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ص66.

[11] عيكوس الأخضر: الصّورة الكنائية في القصيدة الجاهلية، مجلة الآداب جامعة منتوري قسنطينة، مج 04، ع 01، 1997م، ص90.

[12] محمود درويش : الديوان، 40.

[13] المصدر نفسه : ص ن.

[14] المصدر السّابق : ص ن.

[15] المصدر نفسه : ص ن.

[16] المصدر نفسه: ص ن.

[17] محمود درويش: الديوان، ص 41.

[18] المصدر نفسه : ص ن.

[19] المصدر نفسه: ص ن.

[20] المصدر نفسه: ص ن.

[21] المصدر نفسه: ص ن.